أي علاقة بين الأدب والصحافة في سياق ثقافي عربي متطلع إلى التغيير

الصحافة الثقافية أداة تطوير للإبداع ورؤية المجتمع لحاضره ومستقبله

توسعت التغطية الثقافية في وسائل الإعلام الإخبارية سواء المغربية أو العربية أو العالمية لتتجاوز أقسام الفنون والأدب أو الثقافة، إلى أقسام الأخبار والأعمال والتعليقات والرأي والسفر وأسلوب الحياة، ولو بتفاوت، لكن يبقى للصحافة الثقافية في العشرين عاما الأخيرة، مساهمة هامة في صناعة المعرفة والتنمية ودعم الفنون والإبداع ونقل القيم وتطوير فهمنا للثقافة ودورها في المجتمع، وذلك رغم ما تعانيه من مصاعب جمة.

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

الصحافة الثقافية تكوّن حسا إبداعيا وفنيا متقدما (لوحة للفنان سعد يكن)

ينصب الاهتمام الأساسي للصحافة الثقافية على الفنون والعمل الإبداعي بكل تفريعاتهما التي أصبحت تتسع لتشمل كل ما يتعلق بالأدب والفنون البصرية والموسيقى والأفلام والمسرح والرقص والتصوير والهندسة المعمارية والتصميم وألعاب كمبيوتر، ولا يخرج الأمر على الشركات والمؤسسات والسياسات التي أضحت تصنع وتؤثر في محتوى الإعلام الثقافي.

وإذا كانت الصحافة الثقافية تشمل مجالا واسعا وغير متجانس من الموضوعات حيث لا يمكن فصلها في الوقت الحالي عن سياق الصناعات الثقافية والصناعات الإبداعية، وكذلك عن التقنيات الجديدة التي تتطلب إعادة تعريف وتوسيع الصحافة الثقافية ومهارات جديدة للصحافيين، بالتالي لا يمكن اعتبار هذا الجنس من الصحافة مجالًا صغيرًا ومحدّدًا نسبيًا للممارسة الصحافية، بل أضحت ركيزة في صناعة القصة الخبرية كونها تشتغل في التقاطع بين الإعلام السياسي وكل الأشكال الثقافية والصناعات الإبداعية بشكل عام، كما يدخل في نطاق اهتمام الإعلام الثقافي بكل أشكال التعبير الثقافي التقليدي والجديد مثل السينما وفن الفيديو والأدب وفن الشارع والتصوير الفوتوغرافي والموسيقى، وما إلى ذلك، وتأثير التكنولوجيا.

الصحافة الثقافية بالمغرب

من خلال التصفح اليومي للأبواب الثقافية في الصحافة اليومية المغربية، نجد أن بعض مديري تلك الصحف يعتبرون الأخبار الثقافية والمقالات الدسمة والمراجعات النقدية والبورتريهات المتميزة بأنها تثقل كاهل الصحيفة ماديا، ولا يهتم القارئ بما ينشر ما يخفض المبيعات، ولا يتم إعطاء الأقسام الثقافية هامشا واسعا للإبداع، وهؤلاء لا يولون الوظيفة المجتمعية للصحافة الثقافية أي اعتبار رغم أنه لا تتكون فقط من نقل المعلومات داخل المجتمع ولكن أيضًا تساهم في تكوين حس إبداعي وفني متقدم وأضحت تساهم كذلك في ترسيخ دور الثقافة التنموي.

> في ظل الحروب الثقافية المتزايدة دور الإعلام الثقافي أساسي في هندسة التحولات الثقافية التي تقود التغيير

وسجل عبداللطيف بنصفية، الأستاذ بالمعهد العالي للإعلام والاتصال، في إحدى الندوات أن قطاع الصحافة المكتوبة بالمغرب اهتم بالثقافة بصفة دائمة، على شكل مواد متفرقة موزعة على أركان وملاحق ومجلات متخصصة، وهذا الحضور يتنوع بين ما هو إخباري إبداعي، ونقدي وترجمات.

وفي هذا السياق كشف الشاعر صلاح بوسريف، المدير المسؤول عن مجلة الثقافة المغربية، أن الصحافة تأسست على الثقافة، ولم تكن دخيلة عليها كما حدث في مصر والشام، مذكرا بأول ملحق ثقافي بصحيفة العلم المغربية سنة 1947، موضحا أن الأحزاب استمدت قوتها من المثقفين الموجودين بها.

من جهته، أوضح الشاعر والكاتب حسن نجمي، أن الحديث حول الإعلام الثقافي ليس حديثا عن جنس صحافي بحدّ ذاته، بل إن الصحافي المتخصص في متابعة المنجز الثقافي الوطني يشتغل ويمارس مختلف الأجناس الصحافية، من استطلاعات وتحقيقات وبورتريهات ومقالات وأعمدة.

ومع تزايد حجم الخطاب المتعلق بأزمة الصحافة ازداد الضغط على تواجد النقد الثقافي والتغطية الثقافية بالصحف المغربية والعربية على حد سواء، لهذا شكل خطاب الأزمة نقطة مفصلية في اختلال واضح في الاعتراف بدور الصحافة الثقافية في تطوير رؤية المجتمع لحاضره ومستقبله، ولهذا نلحظ انخفاض حجم التغطية الثقافية والمراجعات الشيء الذي أثر في الوعي الجمالي للصحافة الثقافية رغم أن مفهوم الثقافة أصبح أكثر شمولاً.

في المقابل لا يمكن أن تكون الصحافة إلا عملية إبداعية بامتياز تتعلق بالتعمق في كيفية الاستفادة من عقل الصحافي الإبداعي عند الكتابة الصحفية، فالصحافة سرد للقصص وهي ليست خيالية بل تتعلق بأناس حقيقيين وحقائق على الأرض ومؤشرات وأرقام وإحصائيات.

ولاعتبارات مرتبطة بدور الجانب الثقافي في الإنتاج الصحفي وإعطائه قيمته الإبداعية والقيمية، ارتأى عدد من الصحافيين المغاربة المهتمين بالشأن الثقافي والعاملين بمنابر إعلامية مختلفة، القيام بخطة إجرائية بتأسيس "الرابطة المغربية للصحافة الثقافية"، قبل عامين، هدفها الترافع عن مكانة الثقافة في الممارسة الإعلامية وتوسيع حيزها في الإعلام العمومي والخاص، والمساهمة في تطوير شروط ممارسة الصحافة الثقافية، ومساعدة الصحافي الثقافي على أداء مهامه كلها في أحسن الأحوال.

ورغم انحسار الصحافة الورقية فإن الرابطة تهدف إلى الترافع عن مكانة الثقافة في الممارسة الإعلامية وتوسيع حيزها في الإعلام العمومي والخاص، والمساهمة في تطوير شروط ممارسة الصحافة الثقافية، ومساعدة الصحافي الثقافي على أداء مهامه كلها في أحسن الأحوال.

ويرى مؤسسو الرابطة أنه من الضروري تعزيز المشاركة في الإنتاج الإعلامي والثقافي وتقوية النشاط الثقافي عن طريق ورشات التكوين المستمر، وإيجاد شراكات مع المؤسسات الثقافية العمومية وغير العمومية، من شأنها أن تسند العمل الإعلامي المهتم بالثقافة، والمساهمة في النقاش العمومي حول الثقافة والاحتفاء بالجهود المختلفة المبذولة في المجال الثقافي.

وعند تكريمه من طرف الرابطة أكد الفيلسوف الراحل محمد سبيلا، قبل عامين، بأن الصحافة الثقافية المغربية رغم تاريخها الطويل وخاصة الملاحق الثقافية، لم تتطور بالشكل الذي يجعلها قادرة على إنتاج قامات إعلامية كبيرة كما هو الحال في بلدان عربية أخرى، منوها بتجربة الملاحق الثقافية التي كانت تضرب مواعيد معلومة مع القراء، وتنخرط في سباق محموم على استقطاب ألمع المفكرين والأدباء، وتغطية أهم الفعاليات والمستجدات الثقافية والفنية، محليا ودوليا.

تأثير متبادل

لهذا وذاك لا بد من التأكيد على ضرورة الوصول إلى مصادر المعلومات المتخصصة من طرف الصحافي الثقافي كأفضل ضمان لتفسير السياق الثقافي والفني بشكل صحيح والتواصل مع الجمهور، كما من الضروري توفير المعرفة والمهارات والقدرات الأساسية لتعميق فهم النشاط الثقافي والجهات الفاعلة والمؤسسات المشاركة في هذا المجال من النشاط الإعلامي، كما يحلل دور الثقافة في المجتمع المعاصر ودور الصحافي أيضا في هذا السياق الثقافي.

وكما تؤثر الصحافة على الثقافة فهي أيضا تتأثر بها، فتأثير الصحافة على الثقافة وجد اهتمامًا واسعًا في أدبيات الدراسات الثقافية سواء في الغرب أو المناطق العربية، إلا أن التأثيرات الثقافية والمجتمعية على الصحافة كانت أقل بحثا، لاعتبارات تتعلق بالمحددات السياسية والاقتصادية، وتأسيسا على ما سبق فلا بد من التأكيد على القيمة الجوهرية للصحافة الثقافية وذلك لفوائدها الاقتصادية أو الاجتماعية، وأيضا لاعتبارات حضارية وقيمية وأيضا لمواكبة السياحة والصادرات والتنمية وعلاقتها بمجتمع المعرفة والحفاظ على هوية المجتمع في ظل الحروب الثقافية والحضارية والتي تمول بسخاء من طرف مؤسسات دولية لنشر نماذج ثقافية محددة.

في ظل الحروب الثقافية المتزايدة يبقى دور الإعلام بشكل عام وبالتحديد الثقافي بشكل خاص أساسيا في هندسة التحولات الثقافية التي تقود التغيير السياسي والاجتماعي، سواء داخل المجتمعات العربية أو الغربية على حد سواء مع وجود فوارق جغرافية وديموغرافية وعلمية وفهم عميق في التعاطي مع مخرجات ونتائج تلك الحروب والخوض فيها، ولهذا تتسع اهتمامات الصحافة الثقافية مع تطور فهمنا للثقافة ودورها في المجتمع، ولتعقيد المجال وسياقاته الاجتماعية مع جميع النتائج المحتملة على عمل الصحافي الثقافي ومجال الثقافة بشكل عام.

وإذا كانت الصحافة الثقافية تساعد على فهم الروابط بين الأحداث الثقافية والمجتمع والحاضر والماضي، فإن هذه العلاقة بين الصحافة والثقافة والمجتمع يمكن تصنيفها علاقة تكافلية، لهذا نجد الفيلسوف محمد سبيلا، يتفق على أن الصحافة والثقافة تربطهما علاقة عضوية، وأن الصحافي الجيد لا يمكنه أن يتطور دون ثقافة جيدة تسنده، مشيدا بالأدوار التنويرية التي لعبتها الصحافة المغربية من خلال متابعتها للأحداث وتحليلها، والتي لم تسقط في التفسير الأسطوري عند تناولها لبعض الاحداث، بل كانت أميل إلى التفسيرات العقلانية لبعض الظواهر وعملت على إشاعتها والتبشير بها ضمنيا.

اليونسكو تشخّص واقع إنتاج السينما في أفريقيا

باريس – يشهد الفن السابع في أفريقيا تطورات سريعة جعلت الإنتاجات السينمائية الأفريقية تخوض مسابقات عالمية، فيما تأخذ المهرجانات الأفريقية أو تلك التي تعنى بالسينما الأفريقية نسقا تصاعديا.

وفي السنوات القليلة الماضية، وجدت السينما الأفريقية طريقها إلى المستوى الدولي، وتمت مكافأة العديد من الأفلام وبرمجتها في أكثر المهرجانات هيبة.

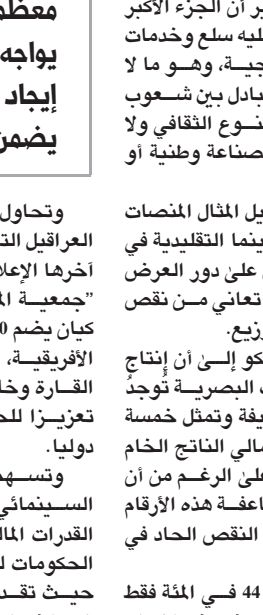

لكن قطاع السينما يشكو إلى الآن من قلة التمويل ويغيب عن السياسات الثقافية للحكومات الأفريقية، رغم أن السينما أصبحت خلال السنوات الأخيرة صناعة حقيقية تلعب دورا اقتصاديا هاما.

وفي رصد لواقع السينما في القارة السمراء أصدرت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) أخيرا تقريرًا شخصت فيه واقع السينما الأفريقية وقدمت توصيات من شأنها تنظيم نمو مطرد لهذا القطاع.

ورأت المنظمة في تقريرها الواقع في 70 صفحة أن إنتاج الأعمال السينمائية يشهد تطورا ملحوظا في أفريقيا بفضل التقنيات الرقمية ولكن استغلال مقدراته الاقتصادية يظل دون المستوى المطلوب بشكل كبير في الغالبية العظمى من دول القارة.

وأشادت اليونسكو بالسينما في نيجيريا (نوليوود) التي تنتج نحو 2500 فيلم سنويا، ما سمح بميلاد إنتاج سينمائي محلي يتوفر على نموذج اقتصادي خاص بها.

ولكنها أكدت أن الإنتاج السينمائي في معظم الدول الأفريقية الأخرى يواجه صعوبات جمة في إيجاد نموذج اقتصادي يضمن له نموا مستداما بسبب حجم وقلة الأسواق الوطنية.

كما جاء في التقرير أن الجزء الأكبر من السوق تسيطر عليه سلع وخدمات سمعية بصرية خارجية، وهو ما لا يسمح بالتعارف المتبادل بين شعوب القارة ولا بترقية التنوع الثقافي ولا بالتطور الاقتصادي لصناعة وطنية أو إقليمية.

فقد أثرت على سبيل المثال المنصات الرقمية على إنتاج السينما التقليدية في أفريقيا وبشكل خاص على دور العرض في بلدان ما تزال تعاني من نقص التمويل والإنتاج والتوزيع.

وأشارت اليونسكو إلى أن إنتاج السينما والسمعيات البصرية توجدُ نحو خمسة ملايين وظيفة وتمثل خمسة مليارات دولار من إجمالي الناتج الخام في القارة السمراء على الرغم من أن مقدراتها تسمح بمضاعفة هذه الأرقام أربع مرات. مؤكدة على النقص الحاد في استغلال هذه المقدرات.

وقال التقرير إن 44 في المئة فقط من الدول الإفريقية تتوفر فيها لجان سينمائية وطنية في حين لا تزيد نسبة البلدان التي لديها سياسات دعم للصناعة السينمائية على 55 في المئة.

وأضاف أن أفريقيا تعد من القارات الأضعف نصيبا من التوزيع السينمائي، حيث تشير الإحصائيات إلى وجود شاشة واحدة لكل 787402 شخصا.

السينما الأفريقية، جنوب الصحراء وفي الشتات أيضا، تتأمل التاريخ الأفريقي والإنسان الأفريقي داخل بلاده وخارجها، منذ كان الأفارقة ضحايا الشتات قبل عدة قرون، برواج تجارة الرقيق ضمن منظومة تضم مصدّرين للبشر، ومتخصصين في قنص القادرين على العمل، لبناء عالم جديد على الضفة الغربية للأطلسي حمل اسم الأميركيتين.

ولا تسعى الأفلام إلى الانتقام من هذا الماضي، وإنما تحاول تفكيكه، وتردّ الاعتبار إلى الإنسان الأفريقي، فهو الآن ذات لا موضوع، ذات فاعلة تستطيع أن ترى العالم، وتذهب إلى أمكنة تقررها، وتنال مكانة تؤهلها لها مواهبها. ويعي المخرجون هذا الأمر، لانطلاقهم من موقع المثقف الملتزم، "العضوي" وفقا لأنطونيو غرامشي، "النموذجي" كما يريده فرانز فانون الذي رأى أن المثقف "يتولى التفاوض بين الشعب وإجمالي الأمة، غالبا ضد البرجوازيين القوميين، نظريا وعمليا، بينما يرتبط أيضا بخشبة مسرح العالم". وهكذا صارت الأفلام الأفريقية نوعا من التأمل المعرفي والجمالي والنقدي للذات الأفريقية وللعالم.

وتحاول السينما الأفريقية تغيير رؤية السينما للأفارقة، وتحريرها من العنصرية الغربية التي كرست الصورة الذهنية الاستشراقية، واعتبرتهم متوحشين وهمجا بدائيين ومحتالين، إلى رؤى وطنية لمخرجي أفريقيا بعد الاستقلال في ستينات القرن الماضي، وتحفل أعمالهم بثراء حضاري وفني وثقافي أفريقي، وتذكّر بجرائم "الأوروبي المتحضر".

وكان في انتظار الجيل الجديد من سينمائيي أفريقيا قضايا لا تقل تعقيدا، وأبرزها الهجرة السرية، جرح جديد ينزف، والاستعمار القديم، ناهب الثروات والأرواح، يدير ظهره، ولا يريد أن يتحمل نصيبا من المسؤولية الأخلاقية عنه.

> الإنتاج السينمائي في معظم الدول الأفريقية يواجه صعوبات جمّة في إيجاد نموذج اقتصادي يضمن له نموا مستداما

وتحاول العديد من الجهات تجاوز العراقيل التي تجابه السينما في أفريقيا، آخرها الإعلان في مارس 2021 عن تشكيل "جمعية المهرجانات الأفريقية"، أول كيان يضم 30 من المهرجانات السينمائية الأفريقية، التي تقام داخل بلدان القارة وخارجها، وتعد هذه الخطوة تعزيزا للحضور السينمائي الأفريقي دوليا.

وتسهم أفريقيا في الإنتاج السينمائي الدولي بنصيب كبير، رغم القدرات المالية المحدودة التي ترصدها الحكومات للفن السابع والثقافة عامة، حيث تقدم مصر ونيجيريا إنتاجا غزيرا فيما تدعم دول أخرى مهرجانات سينمائية كبرى، أقدمها المهرجان البانافريقي للسينما والتلفزيون في واغادوغو، ومهرجان قرطاج السينمائي الذي يلتزم بطابعه الأفريقي وتأسس في العام 1966، و"فيسباكو" الذي أقيمت دورته الأولى عام 1969 في بوركينا فاسو.

لكن يبقى طموح منتجي السينما أكبر مما هو كائن وهو ما يحاولون إنجازه عبر محاولة إيجاد وسائل جديدة لتحسين الإنتاج السينمائي في القارة الغنية بحكاياتها وأساطيرها وجمالياتها ومبدعيها.

سينما لها خصوصياتها